

الإيمان بالقدر .. من جدل المتكلمين إلى صناعة اليقين والعمل



الاثنين 22 يونيو 2026 08:00 م

في زمن تتزاحم فيه الأسئلة حول معنى الابتلاء، وحدود الاختيار الإنساني، وعلاقة المسلم بالأسباب، يطرح الدكتور علي محمد الصلابي في كتابه «الإيمان بالقدر» رؤية عقدية وتربوية تسعى إلى إعادة هذا الركن الإيماني إلى صفاته القرآني الأول، بعيدًا عن التعقيدات الكلامية التي أحاطت به عبر قرون من الجدل الفلسفي والمذهبي

ويؤكد الصلابي أن الإيمان بالقدر ليس دعوة إلى الجمود أو التواكل، ولا مبررًا للهروب من المسؤولية، بل هو ركن عميق من أركان العقيدة، يبني شخصية المسلم على اليقين، والسكينة، وحسن الظن بالله، مع الأخذ الجاد بالأسباب والسعي في عمارة الحياة

ويرى الصلابي أن الإشكال التاريخي في مسألة القدر لم يكن نابغًا من نصوص القرآن والسنة، وإنما من محاولة إخضاع قضايا الغيب لمنطق فلسفي محدود، وهو ما أدى إلى ظهور اتجاهات متطرفة؛ بعضها غالى في حرية الإنسان حتى أخرج أفعاله عن مشيئة الله، وبعضها سلب الإنسان اختياره ومسؤوليته تحت شعار الجبر

القدر بين صفاء القرآن وتعقيدات الجدل الكلامي

يشير الصلابي إلى أن الصحابة رضوان الله عليهم تعاملوا مع القدر بفهم فطري متوازن، جمع بين الإيمان الكامل بأن كل شيء بقدر الله، وبين العمل والسعي وتحمل المسؤولية، فلم يكن القدر عندهم بابًا للخصومة الفكرية، بل مصدرًا للطمأنينة والقوة

وبحسب قراءة الصلابي، فإن دخول الفلسفة اليونانية إلى البيئتين الإسلامية في القرون الأولى فتح الباب أمام جدالات كلامية معقدة، شغلت بعض المدارس عن المقصد الإيماني والتربوي للقدر، ومن هنا برزت المعتزلة والجبرية، بين من وسع الاختيار الإنساني على حساب شمول مشيئة الله، ومن ألغى الاختيار حتى كاد ينفي معنى التكليف

ويستحضر الصلابي في هذا السياق شهادات عدد من كبار علماء الكلام الذين أقروا في أواخر حياتهم بقصور المناهج الكلامية عن منح القلب اليقين الكامل، ومن أبرز هذه الشهادات ما نُقل عن الإمام الجويني والفخر الرازي، في إشارة إلى أن الطريق الأقرب للطمأنينة هو الرجوع إلى طريقة القرآن في إثبات القدر دون تكلف أو غلو

ويؤكد الصلابي أن منهج السلف في القدر لم يكن إلغاءً للعقل، بل وضعًا له في موضعه الصحيح، فالعقل أداة للفهم والاستدلال، لكنه لا يتحول إلى حاكم على الغيب، ولا يحيط بأسرار الحكمة الإلهية التي تتجاوز حدود الإدراك البشري

القدر امتداد للتوحيد لا باب مستقل عن العقيدة

يرى الصلابي أن الإيمان بالقدر لا يمكن فصله عن الإيمان بأسماء الله وصفاته، فمن آمن بأن الله عليم، آمن بأن علمه محيط بكل شيء، ومن آمن بأنه قدير، أيقن أن قدرته نافذة في الكون كله، ومن آمن بأنه حكيم، سلم بأن أفعاله لا تخلو من حكمة وإن خفيت على العباد

ويشرح الصلابي مراتب القدر الأربع: علم الله المحيط، وكتابه لمقادير الخلائق، ونفاذ مشيئته، وخلق لكل شيء، وهذه المراتب، في رؤية الصلابي، ليست قضايا نظرية جافة، بل أساس لبناء التوحيد في قلب المسلم، لأنها تجعله يرى الكون كله خاضعًا لعلم الله وقدرته وحكمته

ويشير الصلابي إلى أن السؤال الأهم لا ينبغي أن يبقى حبيس ثنائية: هل الإنسان حر أم مجبر؟ بل يجب أن يتحول إلى سؤال أعمق: كيف يعيش الإنسان عبدًا لله، مؤمنًا بقضائه، مسؤولًا عن اختياراته، عاملًا بما أمره الله به؟

القصة القرآني بوصفه مدرسة لفهم القدر

يوضح الصلابي أن القرآن لم يعرض قصص الأنبياء لمجرد السرد التاريخي، بل جعلها ميداناً تربوياً لفهم سنن الله في الكون والحياة فالقصص القرآني، في منهجه، يكشف كيف يعمل القدر الإلهي في حياة البشر عبر المحن والأسباب والتحويلات غير المتوقعة

وفي قصة يوسف عليه السلام، يبرز الصلابي كيف تحولت سلسلة المحن من الجب إلى الرق إلى السجن إلى طريق للتمكين فالقدر هنا لم يكن تعطيلاً للحركة، بل كان يفتح من داخل الألم أبواباً لم يكن البشر يتصورونها

ويلفت الصلابي إلى أن يوسف عليه السلام لم يستسلم بحجة القدر، بل أخذ بالأسباب في كل مرحلة؛ دعا إلى الله في السجن، وطلب من صاحبه أن يذكره عند الملك، ثم قدم خطة اقتصادية لإنقاذ مصر من المجاعة وهكذا يجمع النموذج القرآني بين الإيمان العميق والعمل الواعي

وفي قصة موسى عليه السلام، يرى الصلابي أن القدر قد يتحرك من خلال أسباب تبدو في ظاهرها مخيفة أو غير مألوفة فأم موسى ألهمت أن تلقي ولدها في اليم، وكان هذا الفعل، رغم قسوته الظاهرة، طريق النجاة والرد والتمكين

أما في قصة مريم عليها السلام، فيؤكد الصلابي أن القدر الإلهي لا تحكمه حدود المألوف البشري، فالله يخلق ما يشاء، ويغير الأحوال بما لا يخطر على عقول الناس وهذا المعنى يربي المؤمن على سعة الأفق وعدم استعجال النتائج

الأخذ بالأسباب الحد الفاصل بين التوكل والتوكل

يحذر الصلابي من انحرافين خطيرين في فهم القدر: الأول هو التوكل وترك العمل بحجة أن كل شيء مقدر، والثاني هو الاغترار بالأسباب ونسيان أن الله هو المسبب الحقيقي وكلاهما، في نظره، خلل في التوحيد وفهم السنن

ويؤكد الصلابي أن الإسلام لم يجعل الإيمان بالقدر بديلاً عن السعي، بل جعله دافعاً للعمل فالرسول صلى الله عليه وسلم أمر بالتداوي، وحث على الأخذ بالأسباب، وعلم المسلم أن يربط قلبه بالله دون أن يترك واجبه في الواقع

ويستشهد الصلابي بنموذج ذي القرنين، الذي جمع بين الإيمان والتمكين والعمل المنظم فقد نسب الفضل أولاً إلى الله، ثم طلب القوة والجهد والمواد لبناء السد، وبعد إنجاز العمل رد النعمة إلى رحمة ربه، لا إلى قدرته الذاتية وحدها

ومن هنا، يقدم الصلابي مفهوماً متوازناً للتوكل: أن يعمل الإنسان بكل ما يستطيع، ثم يسلم النتائج لله فربط الناقلة لا يناقض التوكل، بل هو جزء منه، كما أن الاعتماد على الله لا يعني إهمال الأسباب

****الهداية والضلال ومسؤولية الإنسان****

يعالج الصلابي واحدة من أدق قضايا القدر: علاقة الهداية والضلال بعدل الله ومسؤولية الإنسان ويقرر أن الله لا يظلم أحداً، وأنه أقام الحجة على عباده بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وغرس الفطرة، وبث الآيات في الكون والأنفس

ويرى الصلابي أن القدر لا يلغي اختيار الإنسان، بل يعمل في إطار علم الله السابق وحكمته المطلقة فالإنسان مأمور بطلب الهداية، ومحاسب على الإعراض عنها، ومسؤول عن تزكية نفسه أو تدسيثها

ويعدد الصلابي أسباب الهداية العملية، وفي مقدمتها الإقبال على القرآن، والدعاء، ومجالسة الصالحين، والعمل بما عُلم وفي المقابل، يربط الضلال بالغفلة والكبر والإصرار على المعصية ورفض الحق بعد ظهوره

القدر وبناء الإنسان الحضاري

ينتهي الصلابي إلى أن الإيمان بالقدر لا يصنع فرداً سلبياً، بل يصنع شخصية قوية لا تنهار أمام المصائب، ولا تستسلم للهزائم، ولا تغتر بالنجاحات فالؤمن بالقدر يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه

ويؤكد الصلابي أن هذا الإيمان كان حاضراً في سلوك الصحابة والتابعين، لا بوصفه فكرة نظرية، بل طاقة روحية وحضارية ومن أبرز الأمثلة كلمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند الطاعون: "نفر من قدر الله إلى قدر الله"، وهي عبارة تلخص فقه الاحترار والعمل دون إنكار للقدر

وفي البعد الحضاري، يرى الصلابي أن الأمم لا تنهض بالصدفة ولا بالدعاء المجرد من العمل، بل بفهم سنن الله في التغيير فالنهضة تبدأ من الداخل، من إصلاح النفس، وبناء العلم، وتنظيم الجهد، واحترام السنن الكونية التي وضعها الله في الحياة

خاتمة

يقدم كتاب «الإيمان بالقدر» للدكتور علي محمد الصلابي قراءة شاملة تعيد هذا الركن العظيم إلى وظيفته الأصلية: بناء اليقين لا صناعة الجدل، وتحريك الإنسان لا تخديره، وربط القلب بالله دون تعطيل العقل والعمل

فالقدر في رؤية الصلابي ليس عذراً للفشل، ولا ستاراً للتواكل، بل هو سلاح المؤمن في مواجهة الخوف، ومصدر طمأنينته أمام البلاء، ودافعه للعمل حين تضيق الأسباب. ومن هنا تتجلى الرسالة الكبرى للكتاب: سلّم لله فيما لا تدرك، وثق بحكمته فيما يؤلمك، وخذ بالأسباب فيما تقدر عليه، وافهم سننه إذا أردت نهضة حقيقية.